

الوحدات الصوتية الصائتة في اللغة العربية

الأستاذة: ربيعة برباڤ

أستاذة مساعدة بقسم اللغة العربية
المركز الجامعي الشيخ
العربي التبسي. تبسة-
الجزائر

تمقدمة:

تعد الصوائت القسم الثاني من الوحدات الصوتية التركيبية في أية لغة، وهي أكثر ترددا في اللغات المختلفة، رغم قلة عددها مقارنة بعدد الصوامت، وهي أول الأصوات التي ينطق بها الطفل أثناء تعلمه اللغة، وهذا راجع إلى طبيعتها الفزيولوجية من جهة، فهي أساس في النطق، إذ إن الصوامت أصوات تحتاج لنطقها إلى أن تسبق أو تلحق بصائت، وذلك لسهولة تشكيلها فزيولوجيا، إذ تنتج عن تيار عن تيار الهواء الخارج عبر تجاويف الفم دون أن يعترضه أي حاجز اعتراضا تاما أو جزئيا، ويكتفي الناطق في تشكيلها بتغيير حالة الممر، وبالخصوص حالة الشفتين واللسان، للتمييز بين الصوائت المختلفة.

وقد نالت الصوائت اهتماما كبيرا من اللغويين في اللغة العربية بصفة خاصة- منذ بداية الدراسات اللغوية العربية، وقد أطلقت عليها عدة مصطلحات منها أصوات اللين، الأصوات الطليقة، حروف المد، حروف العلة، المصوتات، الأصوات الصائتة، الحركات، الطليقات، الأصوات المتحركة، الصوائت، وهذه العناية الكبيرة بالصوائت أو الحركات تدل على أهميتها اللغوية في جميع المستويات (الصوتية،

الصرفية، النحوية، المعجمية، والدلالية).

وقد ميز ابن جني في "سر صناعة الإعراب" بين الحركات القصيرة وحروف المد (الحركات الطويلة) وذلك في قوله: "اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين وهي: الألف والياء والواو. فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمة، والفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو. وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة. وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة، ألا ترى أن الألف والواو والياء اللواتي هن حروف توام كوامل قد تجدهن في بعض الأحوال أطول، وأتم منهن في بعض، وذلك قولك: يخاف وينام ويسير ويظير ويقوم ويسوم، فتجد فيهن امتدادا واستطالة ما... ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه".¹¹

وكان ابن جني في قوله هذا يعترف بوجود ثلاث حركات (صوائت) فقط في اللغة العربية، قد يعترها الطول أحيانا، ويكون بذلك فونيمًا ثانويًا (فوق تركيبية).

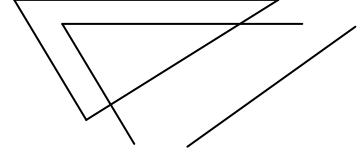
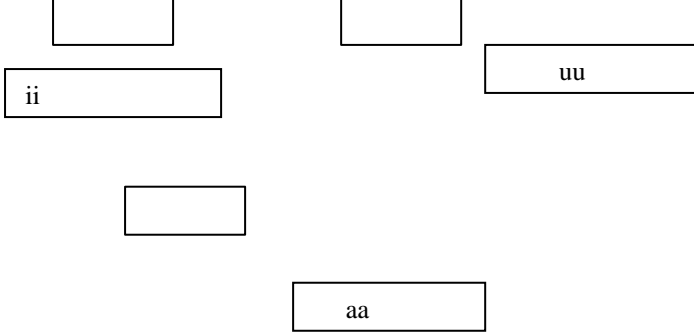
وربما يكون هذا الاعتبار هو السبب الذي جعل اللغويين يرمزون بالحروف الكتابية إلى ثلاث منها فقط وهي الطويلة (أ، ي، و).

ولكن المؤكد أن اللغويين قد انتبهوا إلى هذا الخطأ، فاستدركوا رموزًا أخرى للحركات القصيرة، وهي التي نعرفها بالفتحة والضمة والكسرة، والتي توضع فوق الحرف الذي يسبقها بدلا من وضعها بين سابقها ولاحقها، وأكد الكثير منهم أن في العربية ست حركات لا ثلاث، وإن تشابهت مثنى مثنى، فإنها تتقابل أيضا مثنى مثنى حسب الطول والقصر، واعتمادا على المعيار الوظيفي لا المعيار الصوتي فحسب.

وقد لاحظ الأصواتيون أن الفوارق بين الحركات الطويلة والقصيرة في حالة الانعزال التام (خارج السياق الصوتي) تتمحور في الكمية (الطول والهواء المندفع في الرئتين)، والكيفية (وضع اللسان داخل الفم)، حيث يتغير موضع اللسان

بنسبة معينة أثناء تشكيله للصائت الطويل عن موضعه أثناء نطقه بالصائت القصير. ويمكن تمثيل ذلك بالمخطط التالي:

والفوارق التي تسجل هي:



- الكمية: Quantity أو الطول Length – Duration

- الكيفية: qualitative Feature

- النطقية: ²Articulation

وبالتالي فإن الصائت في اللغة العربية هي: ثلاث قصار Chorts Vowels. وثلاث طوال Lang Vowels. ويمكن الإثبات على أن هذه الصوائت الستة هي فونيمات متميزة بالاعتماد على المعيار الوظيفي، فمثلا كلمة [بِرٌّ] غير كلمة [بَارٌّ]، فالفرق الصوتي بين الكلمتين يتمثل في طول حركة الصوت [ب]، فالأولى قصيرة والثانية طويلة [barr] ، [ba:rr] . وبالتالي نقول بأن الفتحة فونيم والألف فونيم آخر، لأن التبدل بينهما يؤدي إلى تغيير الدلالة المعجمية للكلمة، والشيء نفسه بالنسبة للكلمات (عَمٌّ وَعَامٌّ)، و (هَمٌّ، وَهَامٌّ).

فللحركة دور بارز في التمييز بين معاني الأبنية التي تتفق صورتها من حيث الحروف (الصوامت)، ويفرق بين معانيها بالحركات (الصوائت)، ويجب أن نفرق هنا بين دور الحركة في التحويل الداخلي في مسألة الاشتقاق، وبين الحركات التي هي أصل في بنية الكلمة.³ فمثلا الحركة في كلمتي (الشَّعْر) و(الشُّعْر) لها دور تمييزي (معجمي) وكذلك في الكلمات (جِنَّة، جُنَّة، جَنَّة) أو الكلمات (البُرُّ، البُرُّ، البِرُّ)، وبالتالي فهي أصل في بنية الكلمات. في حين نجد الحركة في الكلمتين (قال) و(قيل) لها دور نحوي يتمثل في التمييز بين الفعل المبني للمعلوم والفعل المبني للمجهول، والشيء نفسه بالنسبة للكلمات (باع وبيع)، (صاحب وصاحب)، وبالتالي

فالحركة هنا ليست أصلية في بنية الكلمات.

لذلك نجد الفونولوجيين يحددون الصوائت التي لها قيمة فونيمية في اللغة المعينة، وذلك بمقابلة الخصائص التي يحملها كل صائت، والنظر إلى دورها التمييزي بين الكلمات، وتحديد وظائفها المختلفة (النحوية، الصرفية، المعجمية...). ولا يخفى علينا الدور الهام الذي تلعبه الحركات في التراكيب العربية، إذ تشكل حركة الإعراب قرينة لفظية بارزة يستدل منها على الوظيفة النحوية للكلمة⁴، فالفاعل -مثلا- يميز بالضممة في آخره (إذا كان مفردا خاليا من موانع ظهورها) والمفعول به يميز بالفتحة والمضاف إليه يميز بالكسرة،.... الخ. ولكن الحقيقة أن هناك فرقا كبيرا بين وظائف الحركات على مستوى الكلمة (حركات الشكل) ووظائف الحركات الإعرابية في آخرها، لأن الأولى أصل في بنية هذه الكلمة، أما الثانية فليست كذلك، والدليل إمكانية تغييرها حسب موقعها في الجملة.

ولاعتماد اللغة العربية على الشكل (وضع الحركات القصيرة فوق الحروف) ظن علماء العربية القدامى أن الحركات توابع للصوامت وليست أصواتا مستقلة بذاتها تمتلك القدرة على التمييز بين الدلالات. وبذلك نظروا إليها على أنها أصوات لها وظائف تنويعية، وليست لها وظائف تمييزية، فاهتموا أكثر بوظائفها النحوية والصرفية، وبعض الظواهر الصوتية التي تتجر عنهما كالحذف والإعلال. ف "ابن جني" يقول: "إن الحرف كالمحل للحركة وهي كالعرض فيه، فهي لذلك محتاجة إليه"⁵. وكأنه في قوله هذا يتحدث عن المقطع الصوتي بالمفهوم الحديث، غير أن المقطع في علم الأصوات يتكون من الحركة وهي الأصل، كما أن الصامت هو الذي يحتاج إلى الحركة للنطق به وليس العكس، إذ لا يمكن النطق بصامت إلا إذا سبقته حركة أو تلتته ولو كانت خفيفة.

وقد أقام "ابن جني" تصوره السابق على الكتابة (الحروف)، لأن كلامه لا ينطبق على المنطوق وهذا ما يؤكد قوله: "لما كان الحرف قد يوجد ولا حركة معه، وكانت الحركة لا توجد إلا عند وجود الحرف، صارت كأنها قد حلتته، وصار هو كأنه قد تضمنها"⁶.

وإذا كانت الكتابة العربية قد اختصرت الحركات القصيرة، فإن الدراسة الفونولوجية لا يمكن أن تختصرها، وذلك لدورها الهام في بناء الوحدات اللغوية والتمييز بين دلالاتها المعجمية من جهة وتنوع معانيها الصرفية من جهة ثانية، إضافة إلى وظائفها النحوية المعروفة، فرغم عددها القليل بالمقارنة مع عدد الصوامت فإنها تتردد كثيرا في البنى اللغوية، بل إنها تتبع تقريبا كل صامت، وتربطه بغيره في الكلمة، بل وتربط حتى بين الكلمات في الجملة كقولنا "إِنْ اسْتَعْجَلْتُمْ". ولأهمية الحركة في بناء الكلمة نجد أن أي خطأ في نطقها سيؤدي إلى تغيير دلالتها أو إبعادها عن نطقها الفصيح.

ويمكن أن نبين أنواع الفونيمات الصوائت في اللغة العربية من خلال وظيفة كل منها:

1 - الصوائت القصيرة:

- الفتحة /َ /:

وهي فونيتيكا حركة متسعة وصائت وسطي قصير، يكون اللسان معها مستويا في قاع الفم مع ارتفاع خفيف في وسطه، حيث يبقى الفم مفتوحا بشكل متسع وحجرات الرنين فيه كثيرة، أما وضع الشفتين معها فتكونان مسطحتين منفرجتين.⁷

أما فونولوجيا، فهي فونيم كثير الظهور في بنى الكلمات وذلك لخفته وسهولته في النطق له وظائف تمييزية وأخرى صرفية وأخرى نحوية. أما هذه الأخيرة فإن الفتحة القصيرة في أواخر الكلمات العربية تدل على وظيفة المفعولية. وأما الثانية فتدل عليه الكلمات (كَتَبَ وَكَاتِبٌ)، (سَرَقَ، سُرِقَ). وأما الأولى فيمكن تبيانها من خلال الجدول التالي:

معناها	التبديل	معناها	الكلمة بفونيم /َ /
إحسان	بِر	أرض يابسة	بَر
هر	قِط	أبدا	قَط
للمسافة	بُعد	للمزمن أو	بَعْد
/	حُب	الرتبة	حَب

خَل	من الحبوب /	خِل	صديق
-----	----------------	-----	------

هذا بالنسبة للفتحة كفونيم تركيبى من فونيمات اللغة العربية. أما بالنسبة لألوفوناتها المختلفة فإنها كثيرة، إما حرة متعلقة باختلاف اللهجات، وإما مقيدة متعلقة بالسياق الصوتي الذي تقع في، فالفتحة في كلمة (طَاب) غير الفتحة في كلمة (تَاب)، فالأولى مفخمة لأنه تبعت صوتا مطبقا، والثانية مرققة لأنها تبعت صوتا غير مطبق.

- الكسرة /-:

وهي حركة ضيقة، وصانت أمامي، يكون اللسان معها أقل ارتفاعا منه مع حركة "جونز" المعيارية رقم 1، ومعها يرتفع مقدم اللسان اتجاه الحنك الأعلى إلى أقصى حد ممكن، مع انفراج الشفتين⁸. وهي أقرب ما تكون إلى الحركة المعيارية [i]. وهي كالفتحة فونيم تركيبى من فونيمات العربية، لها وظائف نحوية تتجلى في دلالتها على الإضافة، وأخرى تنويعية وأخرى تمييزية يبينها الجدول التالي:

معناها الجديد	التبدل يل	معناها	الكلمة بفونيم الكسرة / - /
/	عالم	/	عالم
قمح	بُر	/	بِر
عكس (نار)	جَنَة	جمع (جان)	جِنَة
وقت	السَّحَر	من الجن	السَّحَر
السحور	ر	/	السَّن
من الأسنان	السَّن	العمر	الذُّل
عكس العز	الذُّل	عكس الصعب	

وللكسرة أيضا صور نطقية تعد من قبيل الألوفونات، فمثلا الكسرة في كلمة (ضِد) غير الكسرة في كلمة (نِد)، لأن الأولى مفخمة بحكم سياقها الصوتي والثانية مرققة للسبب نفسه.

- الضمة /-:

وهي حركة خلفية ضيقة، تتكون حين يصبح اللسان أثناء تحقيقها أقرب ما يمكن من الحنك اللين واللهاة وحجرة الرنين الفموية، مع وضع اللسان ضيقة جدا. أما الشفتان فتكونان مفتوحتين فتحتا خفيفا، ومتقدمتين نحو الأمام بشكل مدور.⁹

والضمة كسابقتها فونيم تركيبي من الفونيمات الصائتة في اللغة العربية، لها وظائف نحوية، فهي تدل على الفاعلية والابتداء والإسناد في التراكيب، وأخرى صرفية في مثل: (ضَرَبَ) و (ضُرِبَ)، وأخرى تمييزية (معجمية)، وهذا ما يمثله الجدول التالي:

معناها	التبديل	معناها	الكلمة بفونيم الضمة /ُ/
يايسة	بَر	قمح	بُرّ
عدد	الألف	من	الألفُ
/	جِنة	التآلف	جُنّة
صداق المرأة	مَهْر	وقاية	مُهْرٌ
		صغير	
		الخيّل	

وتعد الضمة صوتيا أثقل الحركات القصيرة وأقلها طولاً.

2 -الصوائت الطويلة:

-الألف /ا/:

لا يوجد اختلاف كبير بين طريقة تشكيل الفتحة الطويلة (ا) والفتحة القصيرة، فالفرق بينهما ليس إلا اختلافا في كمية الصوت، خاصة إذا وقعتا في السياق الصوتي نفسه، أما الاختلافات البسيطة في وضع اللسان فإنها لا تخرجها من الطبيعة نفسها.

والألف من الفونيمات التركيبية التي تعج بها البنى اللغوية للعربية، ولها وظائف نحوية، كنصب جمع المذكر السالم، وأخرى صرفية، كالدلالة على المثنى وعلى جمع المؤنث السالم، فالفرق الوحيد بين كلمتي (مُسَلِّمَةٌ) و(مُسَلِّمَاتٌ) هو الفرق بين الفتحة والألف، وهو الطول في الثانية، فالتبديل بين الفونيمين /ا/ و /أ/ يؤدي وظيفة لغوية. كما يمكن للألف أن تؤدي وظائف تمييزية (معجمية)، وهذا ما سنبينه

في الجدول التالي:

معناها الجديد	التبديل	معناها	الكلمة بفونيم الألف //
/	هَمّ	/	هَامّ
/	عَمّ	/	عَامّ
/	جور	/	جار
راية	عَلَم	/	عَالَم

ـ الياء /ي/:

الشيء نفسه يقال عن هذا الفونيم، الذي لا يختلف في تشكيله الفيزيولوجي عن الكسرة سوى في كمية الصوت (طوله)، خاصة إذا وقعتا في السياق الصوتي نفسه.

والياء من الفونيمات التركيبية في اللغة العربية التي تظهر على صورتين في السياق الصوتي الذي تقع فيه، فهو إما صامت، وذلك إذا سمع معها خفيف خفيف أثناء مرور الهواء في الفم، وبذلك يصبح صامتا احتكاكيا يمكن للحركات القصيرة أن تتبعه، مثل: (بَايَع)، (سَايَرَ)، (بَيَّت)، (صَيَّد)، (كَيْل) وغيرها. وقد سمينا هذا النوع من الفونيمات بأشباه الصوائت.

وهذا الصوت لا يهمننا في هذه النقطة، فما يهمننا هنا هو الياء كحرف علة بلغة النحاة العرب، أو كصائت بلغة اللسانيات الحديثة، وهذا الصوت لا يحدث معه أي احتكاك مع المخرج، فهو صائت محض، وذلك في مثل: (مريض)، (سليم)، (مهيب)، (مسلمين)، وغيرهما. ولهذا الصوت في اللغة العربية قيمة وظيفية، إذ يقوم بوظائف نحوية حين ينصب ويجر جمع المذكر السالم، وأخرى صرفية كتيبان صيغة المبالغة في مثل (فعليل)، وأخرى في بيان النسبة إلى المتكلم كقولك: أب، وأبي، فالياء في هذه الأخيرة فونيم مورفيمي. أما بالنسبة لوظائفه التمييزية فيمكن تبيانها من خلال الجدول الموالي:

معناها الجديد	التبديل	معناها	الكلمة بفونيم الياء /ي/
------------------	---------	--------	----------------------------

/	فول	/	فيل
/	عَلَم	/	عليم
مدينة	حَلَب	/	حايب
سورية	جار	/	جير
/	خروف	/	خريف
/			

_ الواو /و/:

هذا الصائت أيضا من الفونيمات التركيبية للغة العربية، يشبه في تكوينه الفزيولوجي الضمة، وهو كالياء له صورتان نطقيتان: الأولى تخرجه من دائرة الصوائت إلى دائرة الصوامت، وذلك حين يحدث حفيف خفيف للهواء مع الشفتين فيصبح صامتا احتكاكيا قابلا لأن تلحقه الحركات المختلفة. فمثلا: كلمة (تأويل) تحتوي على صوت الواو الاحتكاكية. هذه الواو التي حركت بصائت بعدها هو الياء (الكسرة الطويلة). والمعروف أن الحركات لا تحتاج إلى حركات بعدها لأنها ليست ساكنة. ونلاحظ مثل هذا الصوت في مثل: (يوم، صوم، ألوان، أسوار، ...)، وهو أيضا من أشباه الصوائت.

أما الواو التي تهمننا في هذا المجال فهي الواو المَدِيَّة (الضمة الطويلة)، كالواو الثانية في مثل كلمة (مدعوون). فهي حركة مد، بينما الواو الأولى صوت صامت احتاج إلى حركة بعده.

وللواو الصائتة وظائف لغوية كثيرة منها النحوية كرفع جمع المذكر السالم، ومنها الصرفية كالمبالغة في الصيغة (فُعُولٌ) كقولنا: (شُكُورٌ) لمن يكثر الشكر. أما الوظائف المعجمية أو التمييزية فيمكن تبيانها من خلال الجدول الموالي:

معناها	التبديل	معناها	الكلمة بفونيم الواو /و/
الجديد			
/	فيل	/	فول
/	جار أو	/	جور
/	جير	/	خروف

/	خريف	/	عود
فعل أمر من	عيد	/	روم
رام	رُم		

من خلال الجداول السابقة، نثبت أن الفونيمات الصائتة في اللغة العربية هي ست فونيمات فقط: ثلاث قصار وثلاث طوال. (الفتحة، الضمة، الكسرة، الألف، الواو، الياء). أما الصور النطقية لهذه الفونيمات فقد تتعدد بتعدد اللهجات العربية. وقد تطرق إلى مثل هذه الصور معظم دارسي اللهجات العربية قديماً وحديثاً، فتحدثوا عن الإمالة والإشمام والتفخيم، فهذا الدكتور "عبد الرحيم" يتحدث عن الإمالة مبيناً أنها ميل الفتحة إلى الكسرة أو الألف إلى الياء¹⁰، وهذا الصوت يشبه صوت [é] في الفرنسية.

وقد ذكر "ابن جني" مثل هذا النوع من الإمالة في قوله: "وأما ألف الإمالة فهي التي تجدها بين الألف والياء، نحو قولك: عالم وحاتم"¹¹. أما الدكتور "إبراهيم أنيس" فيذكر نوعاً آخر من الإمالة، وهي أن نميل بالفتحة نحو الضمة والألف نحو الواو¹². ويشبه هذا الصوت الـ (o) في الفرنسية. وقد ذكر "ابن جني" ما يشبه هذه الإمالة وسماها التفخيم في قوله: "وأما ألف التفخيم فهي التي تجدها بين الألف والواو نحو قولهم: سلام وقام زيد، وعلى هذا كتبوا الصلوة والزكوة والحيوة بالواو، لأن الألف مالت نحو الواو"¹³.

كما ذكر "ابن جني" نوعاً آخر ممن الإمالة قرئ به، وهو إمالة الكسرة نحو الضمة، وذلك في الفعل الثلاثي الذي قلبت عينه ألفاً فقي الماضي كقال إذا بني للمجهول، فنقول: قيل، بيع، غيض، وسيق. ولقد شغل القدماء بفكرة الأصلية والفرعية في الإمالة والفتح، وذهب أكثرهم إلى أن الفتح هو الأصل، والإمالة هي الفرع.¹⁴

أما الدكتور "تمام حسان" فيعترف بوجود صائتين آخرين في اللهجات العربية العامية، وهما كما سماهما الخفضة، وهي التي تتوسط الفتحة والكسرة (é)، والرفعة، وهي التي تتوسط الفتحة والضمة (o)، وقد أشار إلى كونهما صائتين طويلين في معظم اللهجات.¹⁵

ومع وجود مثل هذه الصوائت في اللهجات العربية قديمها وحديثها تبقى مجرد صور نطقية، تعد من قبيل الألوفونات الحرة الناتجة عن الاختلاف اللهجي، لا تحدث أدنى تغير دلالي، ولا تتويع صرفي أو نحوي، فمثلا كلمة (يلعب) (yalYab) تتطق في اللهجة الجزائرية (yalYeb) بصوت يشبه (e) في الفرنسية. والشيء نفسه بالنسبة لكلمة (يكتب) (yekteb) فإبدال الصوت [a] بالصوت [e] لا يغير من دلالة الكلمة معجميا ولا صرفيا ولا نحويا. فمثلا هذه الأصوات (o, é, e) ليست فونيمات في اللغة العربية الفصيحة ولا في لهجاتها العامية.

الهوامش:

- 1 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح، د، حسن الهنداوي، دار القلم، دمشق، ط1، 1985، ج1، ص17-18.
- 2 - ينظر: د/ عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1998، ص201.
- 3 - ينظر: محمد محمد داود، الصوائت والمعنى في العربية (دراسة دلالية ومعجم)، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2001، ص..
- 4 - د/ رحمة نعيم الغزاوي، الجملة العربية في ضوء اللسانيات الحديثة، سلسلة المورد (دراسات في اللغة)، ص171.
- 5 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص38.
- 6 - المرجع السابق، ص73.
- 7 - ينظر: د/ عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص209-210.
- 8 - ينظر: المرجع السابق، ص210.
- 9 - ينظر: المرجع السابق، الصفحة ذاتها.
- 10 - د/ عبده الراجحي، اللهجات العربية، دار المعارف، القاهرة، 1968، ص134.
- 11 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص55.
- 12 - ينظر: د/ إبراهيم أنيس، اللهجات العربية، مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة، ط2، 1981، ص46.
- 13 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص55-56.
- 14 - ينظر: د/ عبده الراجحي، اللهجات العربية، ص135.
- 15 - ينظر: د/ تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1986، ص169.